سياق الحال

بين لسانيات الجملة والتراث النحوي العربي

حيدر غضبان محسن الجبوري **دوهان محمد دوهان الجبوري**

جامعة بابل/ كلية الاداب مديرية تربية بابل

Drhaider13@yahoo.com

الملخص

مشكلة البحث:فيعالج هذا البحث مشكلة ما تزال شائعة في اللسانيات العربية وهي مشكلة مقاربة المناهج الغربية الحديثة والنتائج التي توصلت إليها بالتراث، وقد تباينت مواقف الباحثين من تلك المقاربة بين المتبني لها تبنيا تاما،أو الرافض لها جملة وتفصيلا، أو من يتبنى المقاربة القائمة على القراءة الرشيدة.

ويأتي هذا البحث ليجعل من موضوع سياق الحال ميدانا تطبيقيا لأصول المقاربة الرشيدة بين المناهج اللسانية الغربية الحديثة والتراث النحوي العربي على وفق رؤية جديدة. استطعنا من خلالها ان نثبت أصول تلك المقاربة والوصول إلى نتائج معقولة وبعيدة عن المجازفة.

مادة البحث:مادة هذا البحث – كما هو مبين من العنوان محصورة في سياق الحال بين (التراث النحوي) و(لسانيات الجملة)، ومسوغ ذلك الحصر هو أن التراث النحوي ولسانيات الجملة يشتركان في أمر مهم هو أنهما يبحثان في الجملة ولا يتجاوزانها إلى الكشف عن بنية النص عموما. مما استدعى ذلك إقصاء (التراث البلاغي) و(لسانيات النص) و(التداولية)؛ لأنهما يتجاوزان بالدراسة بنية الجملة إلى النص، مع الفارق بين طبيعة الدراستين وملابساتهما.

خطة البحث:ارتضى البحث بناء على غاياته ومادته التي خصصها بالبحث والتنقيب أن تكون خطته على تمهيد وثلاثة مباحث، كما مبين في ما يأتي:

– التمهيد: في أصول المقاربة بين التراث العربي والحداثة.

– المبحث الأول: سياق الحال في لسانيات الجملة:

أولا: منزلة سياق الحال عند سوسير.

ثانيا: منزلة سياق الحال عند بلومفيلد.

ثالثا: منزلة سياق الحال عند رومان جاكوبسن.

رابعا: منزلة سياق الحال عند جون فيرث.

– المبحث الثاني: منزلة سياق الحال في التراث النحوي العربي.

– المبحث الثالث: موازنة بين منزلة سياق الحال عند النحاة ومنزلته في لسانيات الجملة.

– نتائج البحث.

– قائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية:سياق الحال، لسانيات الجملة، التقويل، النحو العربي.

Abstract

The research deals with a problem that is still unsolved in Arabic linguistics that is assimilating modern western methodologies and the results they arrive at with Arabic heritage. Researchers' attitudes vary between complete adoption, utter rejection, or adoption after close reading.

This research makes situation context a field for careful adoption of modern western methodologies and Arabic grammatical heritage according to a new vision. The researcher proved the origin of this adoption and arrived at reasonable outcomes far from any risks.

The research is limited to grammatical heritage and sentence linguistics. The reason for this limitation is that both study the sentence and do not go beyond it to the text, which led to the exclusion of rhetorical heritage, text linguistics, and pragmatics as they go beyond the sentence to the text.

Key words: the context of the case, linguistics sentence, interpretation, Arabic grammar.

التمهيد: (في أصول المقاربة بين التراث والحداثة)

شاعت في اللسانيات العربية الحديثة، بصورة لافتة للنظر،المقاربة بين منجزات الحداثة والتراث العربي القديم،أو ما يسمى بـــ(التقويل).وكانت للدراسات النقدية اللسانية مواقف من تلك الظاهرة،تتدرج جميعها[١] في ما يأتي:

١. محاولات حاولت أن تؤصل للمناهج الحديثة في التراث وذلك بإيجاد جذور للمناهج اللسانية الحديثة في التراث، وهي محاولات جازفت في مشروعها التأصيلي هذا لأنها كست التراث ما ليس فيه، فهي قراءة تمسخ التراث وتحاول أن تكسوه لباسا لا ينتمي إليه.

٢. رفض بعض الباحثين مثل هذه المقاربات جملة وتفصيلا، وفي هذا المشروع أيضا مجازفة لأنه ينأى عن الصواب،لأن التراث واللسانيات يهتمان بدراسة موضوع واحد فمما لا شك فيه أن نجد نقاط التقاء ونقاط اختلاف بينهما.

٣. محاولات غايتها قراءة التراث قراءة رشيدة، تفيد من نتائجه وتحاول المزاوجة بينه وبين النظريات الحديثة، وهي القراءة الجادة والفاعلة والعلمية، لأنها تبغي من ذلك الوصول إلى نتائج موضوعية تنفعنا في الوصول إلى بناء نظرية متكاملة متصلة بالتراث ومستفيدة من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسات الحديثة[٢].

لقد كان لسياق الحال حضور فاعل في الدراسات العربية القديمة نحوا وبلاغة ونقدا، إلا أن استعمال التراث لسياق الحال يلتقي ويتقاطع من وجهة نظر الباحث مع توظيفه في اللسانيات بمناهجها المتعددة.

لقد اتخذ البحث فكرة سياق الحال، التي استعملها النحاة القدماء واللسانيون المحدثون بوصفها آلية من آليات الكشف عن النظام اللغوي وتفسيره، إجراء ميدانيا لضوابط القراءة الموازنة بين العمل النحوي والنظريات اللسانية الغربية، وقد اخذ البحث بنظر الاعتبار ما يأتي:

١. إن وحدة الموضوع توصل إلى نتائج متقاربة:

فلا خلاف في أن المناهج التي تهتم بدراسة موضوع واحد ستصل إلى نتائج متقاربة.

ولما كانت اللغة– على نحو العموم–هي الموضوع المشترك بين الدراسة النحوية العربية القديمة والنظريات اللسانية الغربية فما من شك في أننا سنلمح نقاط التقاء ونقاط افتراق بينهما.

والقراءة الواعية ينبغي أن تنظر إلى الزاويتين في أثناء مقاربتها بين اللسانيات والتراث، من حيث تشخيص أين يقع الالتقاء؟ وأين يقع الافتراق؟ من دون النظر إلى إحدى الزوايا دون الأخرى وإعطاء صورة ناقصة للمتلقي وإيهامه بأنها الصورة المتكاملة.

٢. إن اللسانيات الغربية ليست كلا منسجما وإنما هي نظريات ومدارس متشعبة أي إنها ذات توجهات مختلفة وتنتمي إلى أصول فلسفية مختلفة وتتبنى آليات في التحليل مختلفة ولها أغراض مختلفة هذا من جهة، ونجد-من جهة أخرى-انبثاق بعض المدارس اللسانية من مدارس أخرى، فهي امتداد لأفكار مدرسة سبقتها.

لذلك كان من اللازم تحديد أي المدارس اللسانية نقصد في الموازنة؟ وعدم الركون إلى التعميم في النتائج، وعدم خلط الأفكار بين المدارس المتمايزة المنبثقة وغير المنبثقة. وهذا يتطلب منا أمرين:

أ. عرض موقف المدارس اللسانية من الفكرة المطروحة وبيان الفوارق بين تلك المواقف ونقاط الالتقاء.

ب. موازنة التراث بكل مدرسة على حدة وإيجاد نقاط الالتقاء والاختلاف فيما بينهما.

٣. اعتماد القراءة الموازنة التي تدعو إلى القراءة الرشيدة، ورفض فكرة القطيعة وعدم الموازنة، ورفض القول أيضا بأن ما موجود عند الغرب موجود في التراث بكل تفاصيله.

٤. مراعاة الظروف التي أدت إلى نشأة التراث العربي، والظروف التي أدت إلى نشأة النظريات اللسانية الغربية كل واحدة على حدة، وعدم إهمال ذلك في أثناء المقاربة بينهما.

ويمكن تصنيف ظروف النشأة الى داخلية وخارجية، أما الداخلية: فهي بناء النظريات على ما توصلت إليها النظريات السابقة عليها، وتجاوز الأخطاء التي وقعت فيها، والإفادة من النتائج الصحيحة التي توصلت إليها الدراسات السابقة. وهو أمر واضح في النظريات اللسانية الغربية التي تعد أغلبها انقلابات منهجية على الدراسات السابقة كما هو الحال في أفكار سوسير التي تمتاز بأنها مقاطعة للدراسات السابقة في المنهج، وهي في الوقت نفسه امتداد لأفكار سابقة لم يكتب لها النضوج. وكما هو الحال في نظرية تشومسكي اللغوية التي قاطعت النظرية التوزيعية وتجاوزت التصنيف ودراسة البنية السطحية إلى دراسة البنية العميقة، ومع هذا أفادت نظرية تشومسكي من آراء المدرسة التوزيعية في دراسة اللغة، ورسم المشجرات، والمختصرات.

وفيما يتعلق بالظروف الخارجية فثمة مناخ فلسفي ورؤى فكرية خارجية أدت إلى ظهور أغلب النظريات اللسانية الغربية، كتأثر سوسير بالفلسفة الوضعية، وتأثر بلومفيلد بالنظرية السلوكية، وانقلاب تشومسكي على بلومفيلد وأفكاره السلوكية لأنها منافية للطبيعة البشرية التي يظهر فيها العقل والفكر بأوضح صوره، لذلك تبنى تشومسكي مبادئ الفلسفة العقلية.

أما الدراسات العربية القديمة فلا خلاف في أنها ظهرت خدمة للنص القراني، فهما، وتقويما للألسنة، وحفظا له من اللحن والعجمة في القول، زيادة على الأغراض التعليمية التي اكتسى بها التراث النحوي. فالدراسات العربية نشأت في بيئة الدراسات القرانية معتمدة في بداياتها على النقل والرواية قبل أن تتأثر بالفلسفة والمنطق الأرسطي.

المبحث الأول/ سياق الحال في لسانيات الجملة:

أولا: منزلة سياق الحال عند سوسير:بات من الأمور البدهية التي لاتحتاج إلى برهان أن سوسير هو المؤسس الأول لعلمية دراسة اللغة من خلال سعيه إلى الكشف عن نظام اللغة وما يمثل ذلك النظام والوسائل التي تمكنه من وصف ذلك النظام وحصره بضوابط واقعية.من خلال تشخيصه المادة المراد وصفها وضبطها، وقد وضع لذلك ثنائية توصله إلى هدفه هي ثنائية اللغة والكلام[٣]. وتشخيصه المنهج الملائم لتلك الدراسة بالاستعانة بثنائية التزامن والتعاقب[٤]،وهما ثنائيتان صغريان تنتميان إلى ما أسماه سوسير بـــ(علم اللغة الداخلي) الذي يشكل مع (علم اللغة الخارجي) (ثنائية كبرى)،التي كان الغرض منها معرفة ما هو أساسي مما هو ثانوي في المادة المراد إخضاعها للضبط الواقعي[٥].

والملاحظ على سوسير في محاضراته أنه لم يتحدث عن سياق الحال مباشرة إلا أننا نستطيع ان نستخلص موقفه من ذلك من خلال امرين: أحدهما؛ حديثه عن ثنائيته الكبرى (علم اللغة الداخلي – علم اللغة الخارجي). أما الأمر الآخر فهو: حديثه عن ثنائية العلامة اللغوية (الدال والمدلول).

لقد بنى سوسير في ضوء الثنائية الكبرى فكره اللغوي، من حيث أنه كان يسعى إلى وصف (نظام اللغة) من خلال رصد ما يمكن ملاحظته وتجريده في اللغة، أما الأمور غير القابلة للرصد أو الملاحظة والأسس المنهجية التي تبعدنا عن النظام فهي مبعدة عن الدراسة اللغوية.

فقد رأى سوسير أن ما يمكن ملاحظته وضبطه هو (لغة الجماعة) أما الكلام الفردي فغير قابل للملاحظة، ووجد سويسر أن اللغة –أية لغة– تحتوي على أمرين: أحدهما؛ ما هو داخلي أساسي في بنية اللغة ولا يمكن الاستغناء عنه ويتمثل ذلك بأصوات اللغة وصيغ كلماتها وجملها، أما الأمر الآخر فهو: غطاء للنواة المكونة للغة وهو كل أمر ثانوي لا يدخل ضمن بنية اللغة مثل الأدب والمقام.

ورأى سوسير أن بنية اللغة تتمثل بما هو أساسي، وأن تلك البنية هي نظام اللغة وكل ما هو ثانوي لا يمكن أن نعده نظاما.وقد أفرد سوسير للحديث عن هذا الأمر (ثنائية كبرى) أسماها بـــ(ثنائية علم اللغة الداخلي وعلم اللغة الخارجي)،وقد شبّه النطاقين بلعبة الشطرنج، التي تحتوي على مكونين؛ما هو ضروري في اللعبة وهو قواعد اللعب، وما هو ثانوي كألوان البيادق والمادة التي صنعت منها وما إلى ذلك من الأمور التي لا تتعلق بقوانين اللعب.

ومع اهتمام سوسير بما هو أساسي في بنية اللغة وإهمال كل ما هو ثانوي أو خارج عن صيرورة البنية اللغوية، إلا أنه أشار إلى أهمية القضايا الخارجية في تكوين اللغة، فقال في ذلك: "إن التعريف الذي قدمته للغة ينطوي على إبعاد كل شيء يقع خارج كيانها ونظامها، أو بعبارة أخرى كل ما يعرف بـــ(علم اللغة الخارجي)، بيد أن علم اللغة الخارجي يتناول أشياء مهمة كثيرة وهي الأشياء التي تخطر على بالنا حين نبدأ بدراسة اللسان"[٦].

إذن كانت الأمور التي تنتمي إلى علم اللغة الخارجي عند سوسير هي أمور هامة وينبغي دراستها لغويا، لكنها مع أهميتها ليست من بنية اللغة ولا تدخل عنصرا أساسيا في الصيرورة البنوية للغة، يقول سوسير: "أعتقد أن دراسة الظواهر اللغوية الخارجية مفيدة جدا، ولكن القول: إننا لا نستطيع فهم النظام اللغوي الداخلي من غير دراسة الظواهر الخارجية إنما هو كلام بعيد عن الحقيقة"[7].

من هنا يتبين أن سوسير ميز بين دراستين مهمتين لكل واحدة منهما آليات وأسس، إحداهما؛ دراسة تعنى بالكشف عن البنية الداخلية للغة (نظام اللغة) وهذه دراسة تقصي كل ما هو ثانوي وخارجي عن تشكيل البنية. ودراسة أخرى تكشف عن أمور مهمة وليس الهدف منها الكشف عن بنية اللغة وهذه تسمح بدراسة القضايا الخارجية عن البنية، يقول سوسير عن ذلك:"وأفضل برهان على الحاجة إلى الفصل بين وجهتي النظر هو أن كل واحدة منهما تتطلب أسلوبا متميزا في البحث. فعلم اللغة الخارجي يستطيع أن يجمع بين تفصيل وآخر من غير أن يقع في قبضة النظام. فيقوم كل كاتب، على سبيل المثال، بتصنيف الحقائق إلى مجموعات بالطريقة التي يراها مناسبة [...] وإذا أراد أن يبحث عن العوامل التي تخلق اللغة الأدبية فباستطاعته أن يستخدم أسلوب التعداد. وإذا رتّب الحقائق بأسلوب منظم إلى حد ما، فإنما يفعل ذلك من أجل الوضوح ليس إلا. أما في علم اللغة الداخلي فإن الأمر يختلف تماما، فالتنظيم العشوائي لا يفيد في هذا العلم. لأن اللغة نظام له ترتيب خاص به"[٨]. ورأى أنه"كلما كان الفصل صارما كان ذلك أحسن"[٩].

وبما أنه صب اهتمامه على بنية اللغة بغض النظر عن كل ما يحيط بها من ظروف وملابسات، وأنه لم يتطرق إلى سياق الحال في تلك البنية. بناء على ذلك نستنتج أنه لم يعترف بسياق الحال من ضمن الأمور الأساسية في دراسة اللغة.

والذي يؤكد هذا الأمر حديثُه عن ثنائية (الدال والمدلول) وهي ثنائية صغرى منبثقة من ثنائية (اللغة والكلام) وهذه الأخيرة تنتمي –كما مر ذكره–إلى الثنائية الكبرى وهي ثنائية (علم اللغة الداخلي وعلم اللغة الخارجي)[١٠]. فقد رأى سوسير أن العلامة اللغوية " تربط بين الفكرة والصورة الصوتية وليس بين الشيء والتسمية "[١١]. وهو تصريح واضح منه بإقصاء المرجع الذي تحيل إليه العلامة اللغوية، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتخلى عن الحديث عن المرجع في أمثلته وتحليلاته للتراكيب اللغوية[١٢].

خلاصة القول: إن سياق الحال كان من الأمور الخارجية عند سوسير، وهو ظاهرة ينبغي أن تحظى بالدراسة شأنها شأن الظواهر الخارجية الأخرى.أما في الدراسة التي تسعى إلى الكشف عن نظام اللغة أو الكشف عن ما هو أساسي أو داخلي في اللغة فيجب في هذه الحالة إبعاد كل ما هو ثانوي أو خارجي عن تلك الدراسة ولا شك في أن مما سيبعد عنها (سياق الحال)،لأنه ينتمي إلى علم اللغة الخارجي.

ثانيا: منزلة سياق الحال عند بلومفيلد:

يعد بلومفيلد رائد المدرسة التصنيفية في التحليل اللغوي، وهي مدرسة لغوية نشأت لتلبية حاجات بحثية تقتضيها طبيعة اللغات في أمريكا الشمالية فهي لغات تمتاز بأمرين: أحدهما؛ أنها لغات لا تاريخ مكتوب لها يمكن أن تدرس من خلاله دراسة تاريخية كما هو حال اللغات الأوربية،وأنها لغات تعبر عن خليط غير متجانس من الأمم والمجتمعات نظرا لنزوح فئات مختلفة الطبقات والثقافات من أوربا وأفريقيا وغيرهما إلى أمريكا الشمالية العالم الجديد.

وقد اقتضت الحاجة إلى دراسة تلك اللغات عند بلومفيلد دراسة تصنيفية آنية لا تاريخية لأنها لغات بلا تاريخ مكتوب، ولا اجتماعية لأنها لغات تعبر عن أقوام غير متجانسة اجتماعيا وثقافيا...الخ. فالدراسة الوصفية هي أساس التحليل الذي انطلق منه بلومفيلد في تحليل تلك اللغات.

وكان الاستناد الفلسفي لنظرية بلومفيلد التصنيفية في التحليل اللغوي إلى أفكار علم النفس السلوكي الذي يعود فضل تأسيسه إلى العالم الأمريكي (واطسن).وقد كان "الإطار العام للسلوكية عند (واطسن) هو التوكيد على الفلسفة المادية والاهتمام بموضوعية علم النفس"[١٣]. فموضوع الدراسة عنده هو المثيرات والاستجابات، أما المثير فهو التغير الحاصل في الحالة النفسية، وأما الاستجابة فهي استجابات اجتماعية راجعة إلى مثيرات خارجية شرطية، ولا علاقة للروح أو الشعور أو العقل بها[١٤]، وبذلك يكون اهتمام علم النفس السلوكي بملاحظة ما يمكن ملاحظته في دراستها،وهي لا تفرّق بين الإنسان والحيوان، لأن سلوكهما قائم –على حدٍّ سواء– على المثير والاستجابة (الفعل ورد الفعل)[١٥].

لذلك كانت دراسة بلومفيلد – بناء على ذلك التأثر–آلية ميكانيكية للغة، تستند إلى تحليل النص اللغوي تحليلا نفسيا بناء على فكرة المثير والاستجابة. وتميز نظرية التحليل الشكلي عند بلومفيلد بين (الشكل) و(الدلالة). فهو يقصد بالشكل"مجموعة من الصفات الصوتية ذات الدلالة التي يمكن أن توجد مجتمعة في أقوال مختلفة، وأما الدلالة فهي صفة في (المثير – رد الفعل) توجد في الأقوال المختلفة المرتبطة بشكل معين[١٦].

وقد ربط بلومفيلد دراسة (المعنى) بـــ(موقف المتكلم) الذي ينطق فيه (شكلاً لغوياً)،والمقصود بـــ(الشكل اللغوي)؛ (الموقف الذي ينطقه المتكلم) و(رد الفعل) (الاستجابة) الذي يستدعي قوة السامع.

وحدّد (الاستعمال اللغوي) من خلال (الموقف)،ففسّره تفسيراً سلوكياً محضاً، بأنه تتابع من (المثير والاستجابة)، بالصورة الآتية:

$$S \rightarrow r \quad \ldots\ldots\ldots\ldots \quad s \rightarrow R$$

ويمثل الحرف (S) بصيغتيه الصغيرة والكبيرة: المثير، ويمثل الحرف (R) بصيغتيه أيضاً:الاستجابة. لكنّ الحروف الكبيرة تعني الوقائع العملية خارج اللغة، أما الحروف الصغيرة فتعني الوقائع اللغوية[١٧]. ويمثّل لذلك بقصته المشهورة عن (جاك) و(جيل)[١٨].

لقد كان محيط السلوك البشري هو مدار البحث عن المعنى عند بلومفيلد[١٩]، فالمعنى عنده:"الموقف الذي يتم فيه الحدث اللغوي المعين، والاستجابة به،أو رد الفعل الذي يستدعي هذا الحدث في نفس السامع"[٢٠]، فالمعنى عند بلومفيلد هو المقام الذي يتحدث فيه المتكلم وورد الفعل (الاستجابة) من السامع[٢١].

وبهذا لم تغب فكرة سياق الحال عن ذهن بلومفيلد إلا أنه–مع ذلك – رأى أن التحليل اللغوي يبدأ من الأشكال لا المعنى، فدراسة المعنى تالية لدراسة الأشكال اللغوية[٢٢].

إن التحليل السلوكي عند بلومفيلد –كما هو واضح في قصة جاك وجيل–كان الهدف منه هو التوصل إلى الحدث الكلامي (القول) محط التحليل وغايته،وتدخل في نظرها بعض العناصر (الاجتماعية) غير اللغوية؛ كشخصية المتكلم والسامع وبعض الظروف المحيطة بالكلام[٢٣] للتوصل إلى المعنى. ولكنها –كما هو ملاحظ مما سبق– تسخِّر العناصر غير اللغوية لأغراض التحليل السلوكي الآلي أو الميكانيكي، لذلك ففي التحليل إلى المكونات المباشرة والتوزيع لا نجد أي صدى للموقف أو العناصر غير اللغوية فيه. كما أن حصره السياق بالمثير والاستجابة يعطيه طابعا آليا مما يجعله لا يتسع للحالات جميعها التي لا تتلاءم مع المثير والاستجابة منها حالات الدعاء والعبادة والمناجاة...الخ[٢٤].

ثالثا: منزلة سياق الحال عند رومان جاكوبسن من علماء مدرسة براغ:

تُنسب براغ إلى (اللسانيات الوظيفية) إشارةً إلى موقفهم المُميّز من (موضوع) اللسانيات و(مهامّه)، فاللغة عند البراغيين"نظام من وسائل التعبير التي توجّه إلى هدف محدد"[٢٥].وهذا جعلهم يوجهون اهتمامهم من البداية إلى علاقة اللغة بالتواصل وبالمجتمع[٢٦].

وهي امتداد لفكر سوسير في دراسة اللغة،غير أنها اختلفت معه في نقاط عدة جوهرية ما يتعلق منها بموضوع بحثنا موقفهم من (النظام الداخلي) و(النطاق الخارجي)،فقد تناولوا علاقات اللغة بالواقع غير اللغوي (النظام الخارجي)، فدرسوا الطبقات اللغوية الوظيفية والأسلوبية وعلاقات اللغة بالأدب والفن والثقافة وعلم الدلالة والشعرية [٢٧].

وقد صنّف (كارل بوهلر) الوظائف اللغوية إلى أقسام ثلاثة،هي:(التعبير؛بالنسبة إلى المتكلم – والاستدعاء؛ بالنسبة إلى السامع– والعرض أو التوضيح؛ بالنسبة إلى الشيء المعبر عنه)[٢٨]، فاللغة – كما يراها بوهلر–وسيلة من وسائل الحياة،وعلى هذا الأساس نظر إلى وظائف اللغة تبعا لاستخدام اللغة في المواقف الكلامية المشتملة على ثلاثة عناصر هي (المتكلم والسامع والأشياء)[٢٩].

ووسع جاكوبسون عناصر الموقف الكلامي فجعلها ستة عناصر لكل عنصر منها وظيفة معينة مثلها بالخطاطة الآتية[٣٠]:

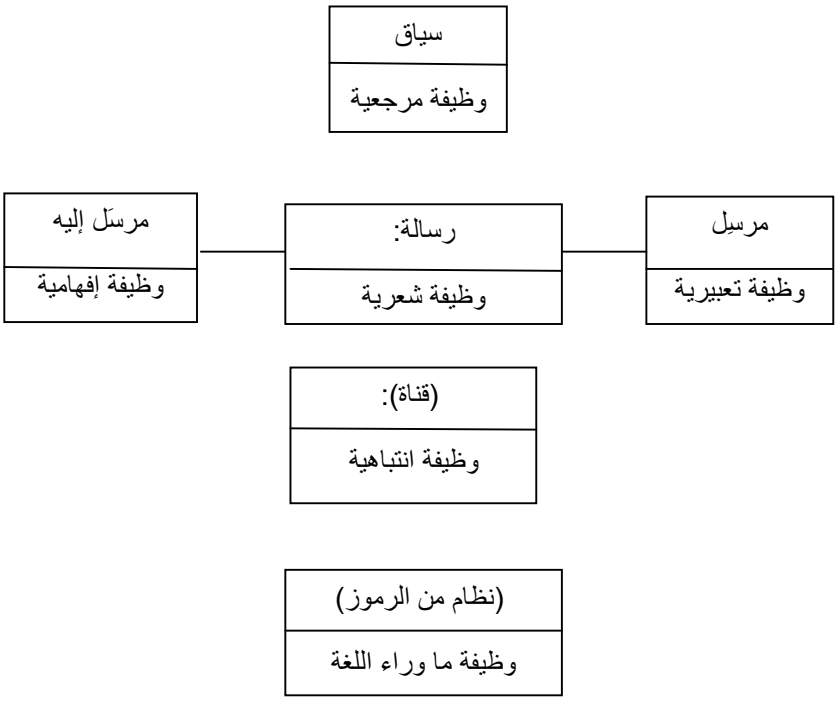

وقد عد جاكوبسون الوظيفة المرجعية (La fonction Référentielle) هي الوظيفة المهيمنة على سائر الوظائف[٣١]،وهي معيار (خارج لغوي) (خارج الكلام) وتتضمن عالم الأشياء أو عالم المراجع،فهي تحيل على واقعية لسانية خارجية تسيج علاقة الدال بالمدلول،ومن ثم،لا يمكن أن يتحقق معنى الشيء، وتتعين هويته، إلا بمعرفة ظروف التواصل وشروطه المميزة أي بمعرفة المقام الحاف بالنص أو (سياق الحال)، فهي في الأساس"تعني العلاقة التي تلاحظ بين العناصر اللغوية – ألفاظ، جمل – والعالم الخارجي"[٣٢]. وهي أهم الوظائف في عملية الاتصال[٣٣]، فهي ذات أثر مهم في أغلب الرسائل، ومن النادر أن تخلو منها رسالة من الرسائل لأنها قاعدة لكل اتصال لكونها تحدد العلاقة بين الرسالة والمجتمع الذي أنتجها[٣٤].

وبهذا يولي جاكوبسون اهتماما بالغا بالوظيفة المرجعية من بين الوظائف الاتصالية الأخرى فهي الوظيفة الموجهة نحو السياق[٣٥]، فالسياق وظيفة تؤديها اللغة، والمرجعية وظيفته[٣٦].

رابعا: منزلة سياق الحال عند علماء المدرسة السياقية الاجتماعية:

أولت المدرسة السياقية الاجتماعية ورائدها فيرث اهتماما بالغا بسياق الحال وعدته المحور الأساسي والأهم في الدراسة اللغوية.

وبصورة مغايرة لتوصيلية براغ، استعمل علماء المدرسة السياقية الاجتماعية سياق الحال بوصفه وظيفة اجتماعية. وكان السبق إلى الاهتمام بالسياق عموما العالم الاجتماعي مليونفسكي"انطلاقا من محاولته ترجمة بعض النصوص لمجتمعات بدائية،فلما عجز تفطن إلى أن الكلام الملفوظ لا يكون له معنى إلا إذا سُيِّق"[٣٧]. غير أن مليونفسكي رفض اتخاذ اللغة معيارا"لأن المعيار يقتصر على أداء مهمة محدودة في اللغة، ولأن الأصل ليست مرآة تعكس الأفكار إنما هي أنواع من السلوك"[٣٨].

لقد أفاد العالم الإنكليزي جون فيرث من أفكار مليونفسكي في بناء نظريته اللغوية الاجتماعية غير أنه رفض الاكتفاء بسياق الحال لوضع نظريته، فارتأى أن يدخله مع الأنماط البنوية في الدراسة اللغوية[٣٩]، ورأى أن سياق الحال يشبه سياق المقال في قابليته للتجريد[٤٠].غير أن أول ما يقوم به الباحث هو دراسة سياق الحال،"ولا بد في هذه الدراسة أن يبتكر الباحث نظاما يطبقه على الأحداث اللغوية. وهذا النظام يتكون من مجموعة من الاعتبارات التجريدية، غير التركيبية اللغوية"[٤١]. ولسياق الحال عند فيرث عناصر هي[٤٢]:

١. شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافي وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع.
٢. العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة؛ كحالة الجو – إن كان لها دخل – والوضع السياسي ومكان الكلام... الخ.
٣. أثر النص الكلامي في المشتركين: كالإقناع والألم...الخ.
ويتطلب تحليل أو دراسة سياق الحال دراسة نوعين من العلاقات:"
١. عناصر داخلية بين عناصر الحديث اللغوي في ذاته، وهي نوعان:
أ. علاقات سياقية أفقية بين عناصر أو وحدات التركيب مدروسة على وفق مستويات تحليلية متعددة.
ب. علاقات جدولية أو رأسية للمفردات أو الوحدات التي يحل كل عنصر منها محل الآخر في إطار نظام محدد لتعطي قيما محددة لعناصر التركيب.
٢. علاقات داخلية في إطار الموقف الذي يتم فيه الحدث، وهي نوعان:
أ. النص في اتصاله بالمكونات غير اللفظية مع تأثيره الكلي أو ثمرته المحددة.
ب. علاقات تحليلية بين أجزاء النص (الكلمات أو العبارات أو أجزاء الكلمات) ومكونات خاصة في الموقف نفسه (أشياء أو أشخاص أو أحداث).

والمكونات الأساسية للمعنى الكامل أو المركب هي وظيفة الأصوات والعناصر المعجمية والصرفية والنحوية والموقف بتمامه"[٤٣].

أما النصوص الأدبية فيمر تحليلها عنده بأربع مراحل أساسية ومتكاملة ومتداخلة، وهي:
– التحليل اللغوي (الأصوات،الصرف والتركيب).
– سياق الحال: (كل الظروف والملابسات المحيطة بالموضوع).
– غرض النص: (التمني،الإغراء أو التحذير أو التوبيخ)
– أثر النص: (كيف تلقى السامع النص)[٤٤].

وبهذا استوعب جون فيرث في تحليله اللغوي الوظائف الكلامية جميعها، ولم يقصره، كما فعلت النظريات السابقة عليه، على وظيفة أو أكثر دون الوظائف الكلامية الأخرى[٤٥].

المبحث الثاني/ منزلة سياق الحال في التراث النحوي العربي

الأسئلة الذي نريد الإجابة عنها هاهنا هي؛هل سياق الحال موجود عند القدماء؟ وما منزلته في توجيه المعنى النحوي؟ وهل أخضعه النحاة للحصر والتجريد؟ ولماذا؟وما فرق تناول القدماء له عن تناول اللسانيين الغربيين؟

ولتبيين الإجابات عن تلك الأسئلة نود التقديم لها بمقدمة تتحدث عن البيئة التي نشأ فيها النحو العربي والمؤثرات التي دعت إلى ظهوره، مع محاولة تصنيف تجريد النحاة لنظام اللغة العربية النحوي. لنخلص من كل ذلك إلى الإجابات المنشودة عن الأسئلة التي تمثل مشكلة البحث وأساس وجوده.

نشأ النحو العربي في ظروف إسلامية بحتة جنبا إلى جنب مع نشأة تفسير القران والقراءات القرآنية والفقه وأصوله،ولأغراض دينية منها؛ محاولة لفهم القران الكريم ولغرض صون الألسنة من الخطأ في قراءته وتلاوته[٤٦]. فالنحو العربي نشأ داخل نظام المعرفة الإسلامي، لذا بدا واضحا أثر تلك العلوم فيه ولاسيما علم أصول الفقه في ما يتعلق ببناء أصوله.

وما ينبغي الإشارة إليه أن النحو العربي يقع ضمن منظومة فكرية نظرية يمكن أن نسميها النظرية اللغوية العربية، تلك النظرية تتشعب إلى جزأين:

أ. الجزء المشترك الذي يرد في مختلف فروعها، وهو ما نجده تحت ما أخذ عنوان الأصول النحوية من سماع إلى قياس إلى علل مع أننا نجدها تتردد في مختلف فروع الدرس اللغوي.

ب. الجزء الخاص بكل مستوى لغوي،وهو ما يظهر في النظرية اللغوية بعينها،أو في النظرية الصرفية فقط...الخ"(٤٧).

وفي ما يتعلق بالجانب النحوي فإنه يتكون – كما يرى الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم،شأنه شأن الأنظمة اللغوية الأخرى، من نظامين:

– "النظام الأساسي للتفسير النحوي، وهو نظام العمل"(٤٨).وتظهر هذه الأهمية واضحة في أول مصنف نحوي وصل إلينا وهو كتاب سيبويه، إذ وصف فيه سيبويه علامات الإعراب والبناء بـــ(مجاري أواخر الكلم) وهي عنده ثمانية"يجمعهن في اللفظ أربعة أضرب: فالنصب والفتح في اللفظ ضرب واحد،والجر والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضم، والجزم والوقف. وإنما ذكرت لك ثمانية مجار،لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل–وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه–وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه، لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف،وذلك الحرف حرف الإعراب"(٤٩).

– "الأنظمة المكملة التي تأتي لتطويع المادة المروية لنظام العمل [...] كالحذف والتقدير والإضمار والاستتار والتضمين والنيابة والحمل على المعنى،إذ لولا هذه الأنظمة أو المفاهيم لما جرت المادة المروية على نظام العمل"(٥٠).

– الأنظمة البديلة: التي ترد بدلا من نظام العمل، ومن ثَمَّ تعد أنظمةً بديلة عن العمل لا تُطوِّع المادة المروية لنظام العمل كما تفعل الأنظمة المكملة، وإنما تَستبدِل بنظام العمل والعلاقات النحوية نظاما صوتيا يَحكم ما ورد فيه من حركة على الحرف الأخير لبعض الكلمات كما هو الأمر مع أنظمة الإتباع ولتخفيف والمناسبة؛ إذ مثل هذه الأنظمة لا تقوم بإخضاع المادة المروية لقواعد نظام العمل وتفصيلاته وإنما تقترح التفسير الصوتي بديلا حاكما للظاهرة اللغوية في التركيب"(٥١).

فالنحو العربي لم يقتصر على فكرة العمل بل تجاوزها إلى مستويات أخرى، إلا أن هذا لا ينفي مكانة العمل المهمة فيه لأنه أبْرَزُ مظاهر الجملة العربية(٥٢).

وقد استشهد الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم للاستدلال على وعي النحاة بالأنظمة الثلاثة بقول ابن جني، الذي نصه:"باب القول على الإعراب: هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيدٌ أباه وشكر سعيدًا أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرجًا واحدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه. فإن قلت: فقد تقول ضرب يحيى بشرى فلا تجد هناك إعرابًا فاصلًا وكذلك نحوه قيل:إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى في اللفظ حاله ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب.فإن كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير نحو أكل يحيى كمثرى: لك أن تقدم وأن تؤخر كيف شئت وكذلك ضربت هذا هذه وكلم هذه هذا وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف نحو قولك أكرم اليحييان البشريين وضرب البشريين اليحيون وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس فقلت: كلم هذا هذا فلم يجبه لجعلت الفاعل والمفعول أيهما شئت لأن في الحال بيانًا لما تعني"(٥٣).

وقد فهم الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم من كلام ابن جني ما يأتي:

١. إن ابن جني جعل الإبانة عن المعاني بالألفاظ وليس بالعلامة الإعرابية فقط.

٢. إن تلك السمات متضافرة ومتكاملة وعدم اقتصار الإبانة على علامة الإعراب.

٣. إنه صنف ما يبين المعنى إلى ثلاثة أصناف متسلسلة، على النحو الآتي:

أ. الدال الأساسي لبيان المعنى النحوي؛ وهو مقصور على العلامة الإعرابية، لكونها أصل الإبانة، فهي لا تبحث عن غيرها إن وجدت.

ب. الدال التكميلي ويعتمد عليه في حالة غياب الدال الأساسي، ويشمل؛ العدد والنوع والمعنى والإشارة والحال.

ت. الدال البديل:ويلجأ إليه في حال غياب الدال الأساسي والدوال التكميلية، ويقتصر على الرتبة(٥٤).

وبعد عرض وجهة نظر الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم عن الأنظمة النحوية عند القدماء، يعترضنا تساؤلان هما: هل فعلا أن سياق الحال عند القدماء من الأنظمة؟وهل هو فعلا من الأنظمة التكميلية؟ بحيث يمكن الاستغناء عنه في لحظة من اللحظات والاكتفاء بالدال الرئيس (العلامة الإعرابية) عنه؟ كما تصوره الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم.

وللإجابة عن هذين السؤالين نقول:

لقد احتل سياق الحال أهمية كبيرة في دراسة القدماء النحوية خصوصا ودراساتهم في العربية عموما، فقد انتبهوا إلى أهميته في الاستعمال اللغوي، يقول ابن جني:"وإنما يعتمد في تحديد الغرض فيه بما يصحب الكلام من أوله، أو آخره، أو بدلالة الحال، فإن لها في إفادة المعنى تأثيرا كبيرا،وأكثر ما يعتمدون في تعريف ما يريدون عليها"(٥٥)، ويرى الزركشي أن (دلالة السياق)"ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلِط في نظيره وغالط في مناظراته"(٥٦).وهو ما أيده النحاة المحدثون، يقول الدكتور فاضل السامرائي:"السياق والمقام من القرائن المهمة في الكلام والدلالة على معناه"(٥٧).

هذا من الجانب النظري، أما من حيث الجانب التطبيقي فإننا نجد حضورا كبيرا لسياق الحال في توجيه المعنى النحوي عند القدماء،وهو أمر واضح وظاهر في دراساتهم النحوية، فهذا سيبويه يقول في حذف الفعل في التحذير:"وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثَنَّوا لكثرتها في كلامهم واستغناء بما يرون من الحال"(٥٨). ويقول ابن جني:"ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة نحو قولك إذا رأيت قادمًا: خير مقدم أي قدمت خير مقدم. فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب. وكذلك قولك للرجل يهوي بالسيف ليضرب به: عمرًا وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتًا القرطاس والله: أي اضرب عمرًا، وأصاب القرطاس. فهذا ونحوه لم يرفض ناصبه لثقله بل لأن ما ناب عنه جار عندهم مجراه ومؤد تأديته"(٥٩). ورأى الرضي أن"القرينة الدالة على المحذوف قد تكون لفظية، كما إذا قال شخص، من أضرب؟ فتقول: زيد. وقد تكون حالية، كما إذا رأيت شخصا في يده خشبة قاصدا لضرب شخص فتقول: زيدا"(٦٠). وفي قول الشاعر:

-جاريَ لا تستنكري عذيريسيري وإشفاقي على بعيري

يقول الرضي:"بيَّن بقوله: (سيري وإشفاقي). الحال التي ينبغي أن يعذر فيها ولا يلام عليها، يقال هذا إذا أساء شخص الصنيع إلى المخاطب، أي احضر عاذرك أو عذرك أو الحال التي تعتذر فيها ولا تلام، وهي فعل المكروه إلى ذلك الشخص، أي لك العذر فيما تجازيه لسوء صنيعه إليك"(٦١).

وفي قصد المتكلم يقول الرضي أيضا:"وبعض العرب ينصب مميز (كم)، الخبرية مفردا كان أو جمعا بلا فصل،أيضا اعتمادا في التمييز بينها وبين الاستفهامية على قرينة الحال فيجوز على هذا، أن تكون في:كم عمةً، بالنصب، خبرية"(٦٢).

ويقول الرضي أيضا نقلا عن ابن الدهان متحدثا عن أهمية المخاطب في تحديد استعمال المتكلم:"الغرض من الكلام إفادة المخاطب فإذا حصلت، جاز الحكم، سواء تخصص المحكم عليه بشيء أو لا. فضابط تجويز الإخبار عن المبتدأ وعن الفاعل، سواء كانا معرفتين أو نكرتين غير مختصتين، شيء واحد وهو عدم علم المخاطب بحصول ذلك الحكم للمحكوم عليه، فلو علم في المعرفة ذلك، كما لو علم قيام زيد مثلا قلت زيد قائم، عُدّ لغوا، ولو لم يكن يعلم كون رجل ما من الرجال قائما في الدار، جاز لك أن تقول: رجل قائم في الدار. وإن لم تتخصص النكرة بوجه [...] وكذلك في الفاعل؛لا يجوز مع علم المخاطب بقيام زيد أن تقول: قام زيد. ويجوز مع عدم علمه بقيام رجل في الدار أن تقول: قام في الدار رجلٌ"(٦٣).

من هنا يتبين أن النحاة القدماء أدركوا أهمية سياق الحال بأركانه الثلاثة (المتكلم والمخاطب والحال المشاهدة) نظرية وتطبيقا في توجيه المعنى النحوي، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا اكتفينا ببعضها للاستدلال على ذلك.

ومن كل ما سبق نخرج بنتيجة هي أن سياق الحال ليس دالا تكميليا كما وصفه الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم، بل هو بيئة خارج النص (قرينة غير مقالية) تحيط بالكلام وتسوغ وجوده، فلا وجود للكلام من دون إفادة... ولا وجود له بوجود علم المخاطب به، كما انه لا معنى للكلام من دون معرفة سياق الحال الذي قيل فيه.

وفي ما يتعلق بكون (سياق الحال) من الأنظمة القابلة للتجريد كما فهمه الدكتور محمد عبد العزيز، نرى أنه كلام لا يخلو من مناقشة، فالقول بكون سياق الحال نظاما عند النحاة قول غير صحيح لأن النظام قابل للضبط والتجريد، أما سياق الحال فهو عند النحاة غير قابل لذلك، والدليل على ذلك أمران:

١. إن جميع القرائن المكملة والبديلة، أخضعها النحاة أيضا للضبط والتقنين إلا سياق الحال، إذ لم يثمر البحث والتنقيب في كتب النحو والبلاغة عن محاولة واحدة لضبط سياق الحال وتجريده بنتيجة، وكل ما هو موجود في تلك الكتب ما هو إلا تأكيد كون السياق عنصرا مهما في توجيه المعنى النحوي ولا يمكن الاستغناء عنه لا في الاستعمال القولي ولا في توجيه ما يقال.

وما يؤيد هذا قول ابن جني بأن الأحوال المشاهدة تعلم "تأمّلًا واستدلالًا"(٦٤) ويرى السهيلي: أن قرائن الأحوال محسنة للنظام(٦٥). ولعل قول النحاة هذا متأتٍ من تأثرهم بعلم أصول الفقه، فأغلب النحاة إن لم يكن أجمعهم يمتلكون ثقافة موسوعية، فهم فقهاء وأصوليون ومفسرون ولغويون ونحويون. وبناء على ذلك نستطيع تعميم موقف الأصوليين من إمكانية ضبط سياق الحال أو تجريده، ليكون موقفا عاما للنحاة، فهذا الجويني يتحدث عن أقسام القرائن قائلا:"وهي تنقسم إلى قرائن مقال وإلى قرائن أحوال. أما الأحوال فلا سبيل إلى ضبطها تجنيسا وتخصيصا ولكنها إذا ثبتت لاح للعاقل في حكم طرد العرف أمور ضرورية"(٦٦)، ويقول الغزالي في كتابه المستصفى في فصل عنوانه (في طرق فهم المراد من الخطاب):"ثم إن كان الكلام نصا لا يُحتمل كفى [كذا] معرفة اللغة، وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يُعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف [...] وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد"(٦٧)، ووصف قرائن الأحوال بأنها"يعسر وصفها"(٦٨).

ولعل هذا النص يؤيده لسان حال النحاة لم يخضعوا سياق الحال للتجريد على الرغم من إيمانهم بأهمية وجوده في توجيه معنى النص.

نخلص من كل هذا إلى:

١. إن النحاة أحسوا بأهمية سياق الحال في توجيه المعنى النحوي.

٢. وإنه ليس من الدوال التكميلية، بل هو قرينة خارجية (غير مقالية) لا يكون الاستعمال اللغوي إلا بتواجده أو بتواجد بعض عناصره.

٣. إن النحاة لم يخضعوه للضبط والتجريد، وسبب ذلك هو أنهم أحسوا بأن سياق الحال مختلف ونسبي ويعتمد على التأمل.

المبحث الثالث: موازنة بين منزلة سياق الحال عند النحاة ومنزلته في لسانيات الجملة

لاحظنا مما سبق أن سوسير أحس بأهمية سياق الحال وأنه قال بإمكانية دراسته خارج الدراسة النظامية للغة لأنه ليس مكونا أساسيا للنظام وبما انه كذلك فهو غير قابل للملاحظة أو التجريد، وهو بهذا يلتقي مع النحاة في شيئين ويفترق معهم في شيء آخر.

ونقطتا الالتقاء تمكنان في مقولتيه: (أهمية سياق الحال)، و(سياق الحال غير قابل للتجريد)

ونقطة افتراقه عنهم تكمن في إبعاد دراسة سياق الحال عن الدراسة النظامية ولا حتى إمكانية الاستعانة به في توجيه مبنى النظام، ويكون سوسير بذلك قد أبعد البنية اللغوية عن الحاضنة الأساسية التي ولدت فيها، مما يؤدي ذلك – في حال تطبيق تلك المقولة – إلى التفريط بعنصر مهم ينفعنى في وصف النظام أو تغير بنيته من وجهة إلى أخرى. في حين أن النحاة لم يستغنوا عن الاستعانة به في توجيه معاني البنى الجملية للنحو العربي، وهم بذلك ربطوا بين دراسة الجملة والحاضنة التي تولد فيها فخرج وصفهم لبنية الجملة–على نحو العموم – دقيقا وشاملا لكن العناصر المنتجة للجملة.

ولاحظنا أن بلومفيلد حصر سياق الحال بالكشف عن الناحية السلوكية من دون الاهتمام بالنواحي الاجتماعية فدراسته للغة دراسة آلية تقصي العقل، وهو بذلك يفترق عن النحاة الذين اهتموا بسياق الحال من جوانبه كافة.كما ان بلومفيلد لم يوظف سياق الحال في تحليله للمكونات المباشرة للجملة. بل استعان به للكشف عن بنية النص الذي ينبغي دراسته في العملية السلوكية الحاصلة بين فردين. أما النحاة فقد استعانوا به في تحليل الجملة العربية وعدوه عنصرا أساسا لوجود الاستعمال اللغوي، وجعلوه مسوغا لكثير من التغييرات الطارئة عليها. ولكن بلومفيلد مع هذا يتفق بوجه من الوجوه مع النحاة من خلال قوله بأهمية سياق الحال في وجود النص اللغوي.

أما علماء مدرسة براغ فقد التقوا مع القدماء في قولهم بأهمية سياق الحال في عملية التوصيل. غير أنهم افترقوا معهم في أمرين، أحدهما؛ أنهم حصروا سياق الحال بالنظام التوصيلي للغة. والآخر أنهم حالوا ضبط (سياق الحال) من خلال القول بأهمية الكشف عن الوظيفة المرجعية وأن تلك الوظيفة تقع على رأس الهرم بين الوظائف الأخرى من حيث الأهمية.

وفي ما يتعلق بعلماء المدرسة السياقية، فقد التقوا مع النحاة بأمرين، أحدهما؛ القول بأهمية دراسة سياق الحال، وأنهم عمموا فكرة سياق الحال لتشمل الجوانب الاجتماعية المحيطة باللغة كافة. غير أنهم افترقوا مع النحاة في قولهم بقابلية ملاحظة سياق الحال أو تجريده، وهو ما لم يقل به النحاة.

ولابد من الإشارة ههنا إلى رأي الدكتور تمّام حسان رائد المدرسة السياقية الاجتماعية العربية الذي نص فيه على أن القرائن الحالية لا تخضع للتقعيد والضبط قائلا:"ومن ثم لا تخضع هذه المقامات للتقعيد

والضبط كما يخضع تقعيد الأنظمة اللغوية، ولكن الباحث مع ذلك يستطيع أن يصل إلى أنواع منها وأن يرصد ما يستعمل من (مقال) في كل (مقام) بحسب العادة دون أن يدعي لارتباط هذا المقال بما نسب إليه من مقام أي نوع من أنواع الحتمية. لأن المقامات والمقالات جميعا من عمل الإنسان والإنسان أكثر شيء استعصاء على الضبط والتقعيد"[٦٩]. فسياق الحالل سياق غير لغوي أي ليست له عناصر لغوية صوتية في الجملة، [...] وعناصر هذا المقام عديدة [...] أولها المتكلم نفسه: أهو ذكر أم أنثى؟ صغير السن أم كبير السن؟ واحد أم إثنان أو جماعة أو جمهور؟ وما جنسه،ودينه، وشكله الخارجي، ونبرة صوته، ومكانه الاجتماعي؟ إلى آخر هذه الصفات التي تميزه عن غيره. وهذا ينطبق على المستمع أيضا، ويشمل إلى جانب ذلك علاقته بالمتكلم من حيث القرابة أو الصداقة أو المعرفة السطحية أو عدم المعرفة أو اللامبالاة أو العداوة أو المكز الاجتماعي أو المالي أو السياسي الخ. ومن عناصر المقام أيضا موضوع الكلام، وفي أي جو يقال، وفي أي مكان وأي زمان، وكيف يقال، وما الداعي لقوله، وغير ذلك من العناصر الكثيرة جدا التي يؤثر كل منها تأثيرا مباشرا على كيفية قول الكلام وعلى تركيبه وعلى معانيه وعلى الغرض من قوله"[٧٠]، على هذا الأساس ذهب الدكتور تمام حسان إلى القول بأنه:"لا نجد ظلا للمعيارية في هذه المواقف الاجتماعية، لأن طبيعة التصرف المرتجل، وعدم اطراد الشخصية الإنسانية في نمطية خاصة يأبيان الخضوع للمعايير، بخلاف الحال في الكلمة وهي وحدة لغوية. إذ اللغة منظمة محكمة النظام تسمح بالمعيارية"[٧١]. هذا من حيث التنظير، أما من حيث الجانب التطبيقي فيبدو لنا جليا موقف الدكتور تمّام حسان من عدم إمكانية ضبط القرائن الحالية وتقنينها في كتابه (الخلاصة النحوية) الذي حاول فيه تقديم النحو العربي بصورة جديدة من خلال التخطيط والجداول. والذي يظهر جليا في هذا الكتاب عدم محاولته لإخضاع سياق الحال للضبط والتقعيد على الرغم من ذهابه إلى أنه وسيلة من وسائل أمن اللبس[٧٢] إيمانا منه بأن المواقف ترتبط بالتصرفات الإنسانية المرتجلة كما مر ذكره عنه. كما يمكننا أن نسوغ لذلك بأن غرضه من كتابه الخلاصة النحوية ان يكون مشروعا لتعليم القواعد بطريقة جديدة، والنحو التعليمي" لا يعنى بكل هذه الملابسات وما يكتنف السياق، بل يعنيه توضيح جانب واحد من جوانب المعنى وهو المعنى النحوي المجرد، أي علاقة الفاعلية والمفعولية وغيرهما، وإن كان يجد نفسه في بعض الأحيان مضطرا للرجوع إلى السياق وملابسات الكلام من أجل توضيح المعنى النحوي نفسه"[٧٣].

يتبين لنا مما سبق أن رأي الدكتور تمّام حسان تأكيد لرأي القدماء الذين نصوا على أهمية سياق الحال مع عدم إمكانية ضبطه وتقنينه.

نتائج البحث

كشف لنا البحث ما يأتي:

١. إن القراءة الرشيدة للتراث التي تسعى إلى المزاوجة بين ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة هي القراءة الأصلح لتراثنا العربي.

٢. كشف البحث عن عدم صحة عد سياق الحال عند القدماء ضمن الأنظمة اللغوية كما يرى بعض الباحثين العرب.

٣. إن رؤية رائد المدرسة السياقية الاجتماعية الدكتور تمام حسان تنسجم مع ما يراه النحاة من أن سياق الحال له أهمية كبيرة في تفسير الأنظمة النحوية وتبيين القصد منها إلا أنه غير خاضع للضبط والتجريد لأنه غير مرتبطة بالنظام النحوي ارتباطا حتميا.

٤. ثمة تلاقٍ نسبي بين استعمال النحاة لسياق الحال في تفسير الجملة –بنية ومعنى– وبين توظيف علماء لسانيات الجملة لسياق الحال، فهم يلتقون معهم في وجوه ويفترقون في أخرى، ولعل أهم ما يميز استعمال

النحاة لسياق الحال في تفسير بنى الجمل ومعانيها (أنهم متأثرون بعلماء أصول الفقه الذين أكدوا عدم إمكانية ضبط سياق الحال أو تقنينه على الرغم من قولهم بأهمية الاستعانة به في دراساتهم النحوية، فهو عند النحاة محسِّن للنظام لا يدرك إلا بالتأمل، بينما تأثرت اللسانيات الغربية في موقفها من سياق الحال بالمرجعيات الفلسفية التي تبني عليها مبادئها، وقد انقسموا في موقفهم من دراسة سياق الحال بين رافض بالجملة لدراسته، وبين من يقول بذلك شريطة أن تكون دراسته منضبطة بقوانين تحصره).

كل ذلك يثبت استقلالية اللسانيات عن النحو العربي، وأن لكلٍّ منهما منهجا له شخصية واضحة مستقلة عن الآخر. وأن نقاط التشابه الحاصلة بين لسانيات الجملة والنحو العربي يسوغها وحدة الموضوع المدروس ألا وهو (اللغة)، أما نقاط الاختلاف فيسوغها اختلاف الظروف والأزمنة وثقافة المنتج والمرجعيات الفلسفية، فضلا عن الغايات الكامنة وراء دراسة اللغة.

هوامش البحث

(١) ظ: التقويل النقدي المعاصر للتراث النقدي والبلاغي عند العرب: ٢٣.

(٢) ظ: النحو والدلالة: ٢٤ – ٢٦.

(٣) للتفصيل، ظ: علم اللغة العام: ٢٦ – ٣٣.

(٤) للتفصيل، ظ: المصدر نفسه: ٩٨ – ١١٧.

(٥) للتفصيل، ظ: المصدر نفسه: ٣٩ – ٤٠. وتجدر الإشارة إلى أن تصنيف الثنائيات السوسيرية إلى كبرى وصغرى هو تصنيف اقترحتُه في بحث سابق. ظ: منهج سوسير في دراسة اللغة ثنائيات أم ثلاثيات؟ د.حيدر غضبان محسن، بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر الدولي التاسع عشر دي سوسير حياة في اللغة المنعقد في كلية الآداب الجامعة المستنصرية ٢–٤ نيسان ٢٠١٣.

(٦) علم اللغة العام: ٣٩.

(٧) المصدر نفسه: ٤٠.

(٨) المصدر نفسه:٤١.

(٩) المصدر نفسه: ٤١.

(١٠) منهج سوسير في دراسة اللغة (ثنائيات أم ثلاثيات): ٣٦٢.

(١١) علم اللغة العام: ٨٤ – ٨٥.

(١٢) ظ: المصدر نفسه: ٨٤ و١٣٣ و١٣٥.والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان:٢٣٢.

(١٣) مدخل إلى علم اللغة: ٣١٠ – ٣١١.

(١٤) المصدر نفسه: ٣١٢ و ٣١٣.

(١٥) ظ: مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي: ٢٠٥. وللتفضيل في آراء السلوكيين ظ: مدخل إلى علم اللغة: ٣١١ – ٣١٣.

(١٦) اللغة والتطور: ٩٩.

(١٧) ظ: البنيوية الأصول اللغوية والمعنى الفلسفي (بحث): ٦٧.

(١٨) ظ:مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي: ٢١٠ – ٢١١.ودور الكلمة في اللغة:٢٦.

(١٩) ظ: سياق الحال في كتاب سيبويه: ٣٩.

(20(L. Bloomfield.Language.p: 134. نقلا من كتاب سياق الحال في كتاب سيبويه: ٣٩

(٢١) ظ:أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٣٢١.وسياق الحال في كتاب سيبويه: ٣٩.

(٢٢) ظ: دلالة السياق: ١٨٠ – ١٨١.

(٢٣) ظ: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣٠٨ – ٣٠٩.

(٢٤) ظ: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية: ٣٠.

(٢٥) تطور علم اللغة منذ عام ١٩٧٠: ١٠٨.

(٢٦) ظ: المصدر نفسه: ١٠٨.

(٢٧) ظ: المصدر نفسه: ١٢٥ – ١٢٦.

(٢٨) ظ:مناهج علم اللغة من هرمان باول إلى ناعوم تشومسكي: ١٢٥. ودلالة السياق: ١٧٤.

(٢٩) ظ: دلالة السياق: ٥٤٧.

(٣٠) ظ: قضايا الشعرية: ٢٧ و٣٣. ودلالة السياق: ٥٤٨.

(٣١) ظ: قضايا الشعرية: ٢٨.

(٣٢) علم الدلالة: ٦٩ و٧٥.

(٣٣) ظ: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون: ٦٧. ودلالة السياق: ٥٥٠.

(٣٤) ظ: نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث: ٢٤٠ – ٢٤١.

(٣٥) ظ: قضايا الشعرية: ٢٨.

(٣٦) ظ: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية: ٢٧.

(٣٧) ظ: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية: ٣٠.

(٣٨) مدخل إلى علم الدلالة: ٦٩.

(٣٩) ظ: المصدر نفسه: ٩٨.

(٤٠) ظ: المصدر نفسه: ١٠٠.

(٤١) اللغة والتطور: ٩٣.

(٤٢) ظ: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣١١. واللغة والتطور: ٩٤.

(٤٣) مدخل إلى علم اللغة: ٣٣٣ – ٣٣٤. وللاطلاع على مراحل التحليل اللغوي تلك بالتفصيل ظ: دراسات في علم اللغة ق٢: ١٧٥ – ١٧٨.

(٤٤) ظ: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية: ٣٣.

(٤٥) ظ: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣١١-٣١٢.

(٤٦) للتفصيل في ذلك، ظ: النحو العربي والدرس الحديث: ٩- ٢٠

(٤٧) النظرية اللغوية في التراث العربي: ٥٩.

(٤٨) المصدر نفسه: ٥٨.

(٤٩) كتاب سيبويه: ١ / ١٣.

(٥٠) النظرية اللغوية في التراث العربي: ٥٨.

(٥١) المصدر نفسه: ٥٨.

(٥٢) ظ:العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه:٥١.والأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي:٥٦٦.

(٥٣) الخصائص: ١ / ٣٦.
(٥٤) ظ: النظرية اللغوية في التراث العربي: ٢٠٢-٢٠٣.
(٥٥) المنصف: ١ / ٢٥٥.
(٥٦) البرهان في علوم القران: ٢ / ٢٠٠.
(٥٧) الجملة العربية والمعنى: ٥٧.
(٥٨) شرح الرضي على الكافية: ١ / ٢٧٥.
(٥٩) الخصائص: ١ / ٢٦٥.
(٦٠) شرح الرضي على الكافية: ١ / ٣٤٠.
(٦١) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢. والبيت أول رجز للعجاج.
(٦٢) المصدر نفسه: ٣ / ١٥٦. وينظر حديثه عن قصد المتكلم في تمييزه بين متى يرفع الفعل بعد حتى ومتى ينصب في: المصدر نفسه: ٤ / ٥٨ – ٥٩.
(٦٣) شرح الرضي على الكافية: ١ / ٢٣١ – ٢٣٢.
(٦٤) الخصائص: ٢ / ٢٠٢.
(٦٥) ينظر نتاج الفكر: ٣١٥.
(٦٦) البرهان في أصول الفقه: ١ / ٨٧.
(٦٧) المستصفى، للغزالي: ١٨٥.
(٦٨) المصدر نفسه: ٢٩٣.
(٦٩) اللغة العربية معناها ومبناها: ٤٢.
(٧٠) النحو والدلالة: ١٤٥ – ١٤٦.
(٧١) اللغة بين المعيارية والوصفية: ١٢٥.
(٧٢) ظ: الخلاصة النحوية: ٢٢ – ٢٣.
(٧٣) النحو والدلالة: ١٤٥.

المصادر والمراجع

الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي، د.فؤاد بوعلي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، مطابع اليقظة، الكويت، ١٩٧٨.

البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني (ت٤٧٨هـ)، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٧.

البرهان في علوم القران، بدر الدِّين محمد بن عبد اللّه بن بهادر الزركشي(ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٩٥٧.

البنيوية الأصول اللغوية والمعنى الفلسفي، سعيد الغانمي، الأقلام، ع٧، س٣، تموز، ١٩٨٨.

تطور علم اللغة منذ عام ١٩٧٠، جرهارد هلبش، ترجمه وقدم له: أ.د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

التقويل النقدي المعاصر للتراث النقدي والبلاغي عند العرب، د.أحمد رحيم كريم الخفاجي، دار ومكتبة البصائر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١١.

الجملة العربية والمعنى، د.فاضل السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

الخصائص، صنعة أبي الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيأة المصرية العامة للكتاب– مصر، ط٤، ١٩٩٩م.

النحو والدلالة، مدخل لداسة المعنى النحوي– الدلالي، د.محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.

الخلاصة النحوية، د.تمّام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤.

دراسات في علم اللغة(ق٢)، د. كمال بشر،دار المعارف، القاهرة–مصر، ١٩٦٩م.

دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، مطابع جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها (٣٣)، ط١، ١٤٢٣هـ.

دور الكلمة في اللغة،ستيفن أولمان، ترجمه وقدَّم له وعلَّق عليه:د.كمال بشر،دار غريب للطباعة،القاهرة، ط١٢.

سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة، د.أسعد خلف العوادي، دار الحامد، الأردن، ط١،٢٠١١م.

السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مراد حاج محند، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب العربي، الجزائر، ٢٠١٢م.

شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق، يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، ١٩٧٨م.

العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل اللغوي، د.خليل أحمد عمايرة، سلسلة دراسات وآراء في علم اللغة المعاصر (٥)، الأردن.

القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، تر: د.منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٧م.

مدخل إلى علم الدلالة، فرانك بالمر، تر:د. خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط١، ١٩٩٧م.

علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: د. مالك المطلبي، مطبعة بيت الموصل، ١٩٨٨م.

علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار النهضة العربية،بيروت، ط١، ١٩٦٢م.

قضايا الشعرية، رومان ياكوبسون، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء– المغرب، ط١، ١٩٨٨.

كتاب سيبويه، كتاب أبي شبر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠ هـ)، تحقيق وشرح: د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.

اللغة العربية معناها ومبناها،، د.تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨.

اللغة والتطور، د. عبد الرحمن أيوب، معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.

المستصفى في علم الأصول، للإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥ هـ)، طبعه وصححه: محمد عبد السلام الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤١٧ هـ.

مدخل إلى علم اللغة، محمد حسن عبد العزيز، دار النمر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٣.

مناهج اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيتة بارتشت، تر: د.سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١،٢٠٠٤م.

المنصف لابن جني، شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، دار إحياء التراث القديم، ط١، ١٩٥٤.

منهج سوسير في دراسة اللغة ثنائيات أم ثلاثيات؟، د.حيدر غضبان محسن، بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر الدولي التاسع عشر دي سوسير حياة في اللغة المنعقد في كلية الآداب الجامعة المستنصرية ٢-٤ نيسان ٢٠١٣، مكتبة الحضارات، بيروت – لبنان،٢٠١٣.

نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي (ت ٥٨١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٢.

النحوالعربي والدرس الحديث بحث في المنهج،د.عبده الراجحي،دارالنهضة العربية،بيروت، ١٩٧٩.

النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص،فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث،سحر كاظم حمزة الشجيري، دار صفاء،عمان–الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ–٢٠١١م.

النظرية اللغوية في التراث العربي، أ.د.محمد عبد العزيز عبد الدايم، دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.